المحاضرة السادسة

"أنواع المعاجم"

لقد شهدت الحضارة العربية تنوعاً غنياً وفريداً في مجال التأليف اللغوي منذ فجر تاريخها العريق، حيث برزت أنواع مختلفة من الكتب اللغوية التي ساهمت في إثراء اللغة العربية ودراستها. من بين هذه الأنواع، نجد الرسائل اللغوية المتخصصة التي تعالج نواحي محددة أو موضوعات معينة في اللغة العربية، فكانت بمثابة مراجع قيمة للباحثين والدارسين. كما ظهرت المعجمات الجامعة، وهي القواميس اللغوية الشاملة التي جمعت بين دفتيها كنوزاً من المفردات والمعاني، لتكون مرجعاً أساسياً للباحثين عن المعرفة اللغوية. بالإضافة إلى ذلك، برزت الدراسات والبحوث التي دارت حول هذه المعجمات، حيث قام اللغويون بتحليلها وتفكيكها وتفسير محتوياتها، مما ساهم في تعميق فهم اللغة العربية وتطورها.

وفي القرن الثاني الهجري، برز عالم اللغة الشهير الخليل بن أحمد الفراهيدي، الذي ترك بصمته الخالدة في تاريخ اللغة العربية من خلال تأليفه لكتاب "العين"، والذي يعد أول معجم لغوي مرتب وموسع في اللغة العربية. لقد كان هذا المعجم إنجازاً فريداً من نوعه، حيث رتب الكلمات بطريقة إحصائية مبتكرة سبق ذكرها، مما سهل عملية البحث والوصول إلى المعلومات اللغوية. لقد كان "كتاب العين" بمثابة ثورة في عالم المعاجم اللغوية، حيث قدم نظاماً ترتيبياً مبتكراً اعتمد على الحرف الأول من الكلمة، مما سمح بتصنيف الكلمات وتنظيمها بشكل منطقي وسهل الاستخدام.

وبعد هذا الإنجاز الرائد، شهدت القرون الثلاثة الأولى الهجرية تطوراً ملحوظاً في مجال المعاجم العربية، حيث تنوعت وتعددت بشكل لم تشهده معاجم اللغات الأخرى. فظهرت المعاجم المرتبة بحسب الألفاظ، والتي عرفت باسم "معاجم الألفاظ"، حيث تم ترتيب الكلمات وفقاً لترتيب الحروف الأبجدية، مما سهل عملية البحث عن المفردات. كما ظهرت معاجم أخرى رتبت بحسب المعاني، أو ما يعرف باسم "معاجم المعاني"، حيث تم تصنيف الكلمات وفقاً لمدلولاتها ومفاهيمها.

ولم تقتصر طرق الترتيب في المعاجم العربية على الألفاظ والمعاني فقط، بل تنوعت أيضاً بحسب طرق الترتيب الصوتي أو الألفبائي أو بحسب الأبنية والأوزان. فبعض المعاجم رتبت الكلمات وفقاً لترتيب الحروف الصوتية، مما سمح بتصنيف الكلمات ذات النطق المماثل معاً. بينما رتبت معاجم أخرى الكلمات بحسب الأبنية والأوزان، حيث تم تجميع الكلمات التي تتشارك في نفس البنية أو الوزن معاً.

ومن الجدير بالذكر أنّ المعاجم الألفبائية شهدت أيضاً تنوعاً في طرق الترتيب، حيث رتبت بعضها الكلمات بحسب الأوائل، أي الحرف الأول من الكلمة، بينما رتبت معاجم أخرى الكلمات بحسب الأواخر، أي الحرف الأخير من الكلمة. لقد ساهمت هذه الطرق المختلفة في تسهيل عملية البحث والوصول إلى المعلومات اللغوية، مما جعل المعاجم العربية مراجعاً لا غنى عنها للباحثين والمهتمين باللغة العربية.

لقد كان للتنوع والتطور في المعاجم العربية أثراً كبيراً في الحفاظ على اللغة العربية وتطورها، حيث ساهمت هذه المعاجم في توثيق المفردات والمصطلحات، وتسهيل عملية البحث والدراسة، مما ساعد في الحفاظ على ثراء اللغة العربية وتطورها عبر العصور.[1].

وتوزعت هذه المعاجم من ناحيةٍ ترتيبها للألفاظ الواردة فيها إلى مدارس مختلفة وصار لكل منها منهجها الخاص[2] . جعلها "حسين نصار" لا تخرج عن مدارس استنتجتها من خصائص معاجم مشهورة تبرز كالآتي:

-المدرسة الأولى:

تعد المدرسة الأولى من المعاجم العربية مدرسة رائدة ومتميزة، حيث تضم مجموعة من المعاجم اللغوية الشهيرة التي تركت بصمتها في تاريخ اللغة العربية. ومن أبرز هذه المعاجم: كتاب "العين" للخليل بن أحمد الفراهيدي، والذي يعد أول معجم لغوي مرتب وموسع، حيث رتب الكلمات بحسب مخارج الحروف، مما شكل أساساً لتقسيم المعجم إلى كتب وأبواب. كما تضم المدرسة كتاب "البارع" للقالي، والذي اتبع ترتيباً مخالفاً لكتاب العين، حيث استقى أغلب ترتيبه من كتاب سيبويه. أما كتاب "التهذيب" للأزهري، فقد هدف إلى تهذيب اللغة وتلخيصها من الأخطاء والتصحيف، بينما ركز كتاب "المحيط" للصاحب بن عباد على استدراك الغريب من اللغة وتجميع المشتت منها. ومن المعاجم المهمة أيضاً في هذه المدرسة كتاب "المحكم" لابن سيده، والذي سعى إلى جمع اللغة المشتتة وتصحيح الأخطاء النحوية.

ترتبط هذه المعاجم برابطة مشتركة، وهي اعتمادها على ترتيب حروف الهجاء بحسب مخارجها، مما شكل منهجاً فريداً في تنظيم الكلمات وتصنيفها. حيث تم تقسيم المعاجم إلى كتب، ثم إلى أبواب تبعاً للأبنية، ثم ملئت هذه الأبواب بالتقاليب، أي الكلمات المتشابهة في البناء. وقد التزمت جميع هذه المعاجم بترتيب كتاب العين للمخارج، باستثناء كتاب البارع الذي اتبع ترتيباً مختلفاً.

وكان لكل معجم في هذه المدرسة هدفاً مميزاً يسعى لتحقيقه. فهدف الخليل بن أحمد الفراهيدي في كتاب العين كان حصر اللغة واستقصاء الواضح والغريب منها، بينما هدف الأزهري في كتاب التهذيب إلى تهذيب اللغة وتصحيحها، أما ابن سيده في كتاب المحكم فقد ركز على جمع اللغة وتصحيح الأخطاء النحوية. ويبدو أن هدف القالي في كتاب البارع يشبه هدف الأزهري، بينما هدف الصاحب بن عباد في كتاب المحيط كان استدراك الغريب من اللغة.

---

[1] -ينظر: أحمد مختار عمر."صناعة المعجم الحديث"، ص 26-27.

[2] -ينظر: حسين نصار. "المعجم العربي نشأته وتطوره"، 1، ص279 و ما بعدها.

وعلى الرغم من المنهج المتبع في هذه المدرسة، إلا أنها وقعت في بعض الأخطاء والمآخذ، خاصة في الكتب الأولى. حيث واجه الباحثون صعوبة في البحث والوصول إلى اللفظ المراد بسبب الترتيب المعقد على المخارج والأبنية والتقاليب. إلاّ أنّ الكتب اللاحقة حاولت معالجة هذه الأخطاء وتخفيف صعوبتها، ممّا ساهم في تطوير المعاجم العربية وتسهيل استخدامها[3].

لقد كان لهذه المدرسة أثراً كبيراً في تطور اللغة العربية، حيث ساهمت في توثيق اللغة وحفظها، وتسهيل عملية البحث والدراسة. كما شكلت هذه المعاجم مرجعاً أساسياً للباحثين والدارسين، مما ساهم في إثراء اللغة العربية وتطورها عبر العصور.

- المدرسة الثانية:

تعد المدرسة الثانية من المعاجم العربية مدرسة مميزة، حيث تضم معاجم مهمة مثل كتاب "الجمهرة" لابن دريد، وكتاب "مقاييس اللغة" لابن فارس، وكتاب "المجمل" أيضاً لابن فارس [4]. وتتميز هذه المدرسة باعتمادها على ترتيب الألف باء والأبنية معاً، مع التركيز على التدرج من أول الكلمة إلى آخرها.

ومن حيث الهدف والمنهج، تختلف هذه المعاجم عن بعضها البعض بشكل ملحوظ. فكتاب "الجمهرة" لابن دريد يقسم بحسب الأبنية أولاً، ثم يقسم كل باب إلى حروف، مما يتيح تصنيفاً دقيقاً للكلمات. أما كتابا "المقاييس" و"المجمل" لابن فارس، فيقسمان وفقاً للحروف أولاً، ثم يقسم كل حرف إلى أبنية، مما يعطي ترتيباً مختلفاً عن "الجمهرة."

وفيما يتعلق بالأبنية، نجد أن "الجمهرة" لابن دريد يحتوي على أبنية كثيرة ومختلطة، بينما يمتاز كتابا "المقاييس" و"المجمل" لابن فارس بأبنية قليلة ومحكمة، مما يسهل عملية البحث والتصنيف. كما أن "الجمهرة" يراعي التقاليب، أي الكلمات المتشابهة في البناء، بينما يطرح ابن فارس هذا الأمر في معجمه، مما يجعله أكثر تركيزاً على الأبنية الأساسية.

أما عن أهداف هذه المعاجم، فنجد أن ابن دريد في "الجمهرة" لا يهدف إلا للجمع الشامل للغة، بينما يمتلك ابن فارس هدفاً خاصاً في معجمه، وهو تقديم منهجية دقيقة لدراسة اللغة العربية.

وقد شهدت هذه المدرسة تطوراً طبيعياً مع مرور الوقت، حيث ظهر الترتيب الألفبائي في المعاجم الحديثة، مثل "أساس البلاغة" للزمخشري، والذي أهمل الأبنية وجمعها معاً. إلا أن ظهور كتاب "ديوان الأدب" للفارابي عاق هذا التطور، حيث اكتشف الفارابي نظاماً يساعد المحتاجين إلى الأسجاع والقوافي، مما أبرز مدرسة جديدة عرفت باسم "مدرسة الصحاح".

---

[3] - ينظر: حسين نصار. "المعجم العربي نشأته وتطوره"، ج 1، ص393-395.

[4] -ينظر: المرجع نفسه، ج2، ص 403 و ما بعدها.

ويرى بعض الباحثين، مثل حسين نصار، أن "أساس البلاغة" للزمخشري له صلة قوية بهذه المدرسة، حيث يعتبر الغاية لها، على الرغم من تأثر المعاجم الحديثة بالمعاجم الأوروبية. ومن أبرز عيوب هذه المدرسة صعوبة الترتيب الذي اتبعته، على الرغم من اعتمادها على الألف باء [5].

لقد ساهمت هذه المدرسة في تطوير المعاجم العربية وتسهيل عملية البحث والدراسة، حيث قدمت منهجيات مختلفة لتصنيف الكلمات وتنظيمها، مما أثرى اللغة العربية وأضاف إليها الكثير.

- المدرسة الثالثة:

تعد المدرسة الثالثة من المعاجم العربية مدرسة عريقة ومشهورة، حيث تضم معاجم ضخمة ولها تأثير كبير في تاريخ اللغة العربية. ومن أبرز معاجم هذه المدرسة: كتاب "الصحاح" للجوهري، وكتاب "العباب" للصاغاني، وكتاب "لسان العرب" لابن منظور، وكتاب "القاموس المحيط" للفيروز آبادي، وكتاب "تاج العروس" للزبيدي، بالإضافة إلى كتاب "المعيار" لميرزا محمد علي الشيرازي.

وتتميز هذه المدرسة بشهرتها الواسعة التي لم تحظ بها أي مدرسة أخرى في تاريخ المعاجم العربية. وتتشارك معاجم هذه المدرسة في عدة نقاط أساسية:

1- **أساس التقسيم:**

يعتمد أساس التقسيم في هذه المعاجم على تقسيم المعجم كله إلى أبواب وفقاً للحرف الأخير من الكلمات، ثم تقسيم كل باب إلى فصول وفقاً للحرف الأول، وترتيب المواد في هذه الفصول وفقاً للحروف الوسطى مع الاهتمام بالحروف الأصول فقط. وهذا الأساس لم يتغير أو يتطور منذ أول معجم في هذه المدرسة إلى آخرها، مما يدل على اتباع منهجية ثابتة ومتماسكة.

2- **باب الكلمات التي آخرها الواو والياء:**

تشترك معاجم هذه المدرسة في إفراد باب واحد للكلمات التي آخرها الواو والياء، مع تقديم الواو على الياء في الفصول. وهذا الترتيب يسهل فصل اللفيف الذي وسطه الواو عن اللفيف اليائي الوسط. وتختلف المعاجم في طبيعة محتواها، حيث يلتزم "الصحاح" بالألفاظ الصحيحة وحدها، وتغلب عليه الصبغة النحوية والصرفية. بينما يهتم "العباب" بالصبغة الأدبية والعناية بالشواهد الشعرية. أما "القاموس" فيلتزم بالاختصار والاستقصاء، وتغلب عليه الصبغة الطبية، ويكثر من الأعلام وخاصة أعلام المحدثين والأماكن والمصطلحات. بينما يغلب على "اللسان" و"التاج" الإسهاب والإطناب، مع اقتصار "اللسان" على المواد اللغوية تقريباً، وضم "التاج" لمواد لغوية إضافية من "القاموس" ومصادر أخرى، مما يجعله خليطاً من دائرة المعارف والمعاجم اللغوية.

3- **الانتقادات:**

على الرغم من شهرة هذه المدرسة وإنجازاتها، إلا أنها واجهت بعض الانتقادات. حيث يرى البعض أن النظر إلى آخر الكلمة ثم أولها ثم وسطها قد يتسبب في تشتيت الذهن، حيث يتطلب التركيز من عدة

[5] -ينظر: حسين نصار. "المعجم العربي نشأته وتطوره"، ج2، ص 478-479.

وجوه. ويعد الترتيب من وجه واحد، سواء من الأول إلى الأخير أو العكس، أسهل وأكثر منطقية. كما أن الترتيب الألفبائي يعد أيسر وأكثر ألفة للنفس[6].

لقد ساهمت هذه المدرسة في إثراء اللغة العربية وتطوير المعاجم، حيث قدمت معاجم ضخمة وشاملة، واتبعت منهجيات دقيقة في التقسيم والترتيب. وعلى الرغم من بعض الانتقادات، إلا أن هذه المعاجم لا تزال مراجعاً مهمة للباحثين والدارسين، وتعد من أهم المعاجم في تاريخ اللغة العربية.

-المدرسة الرابعة:

تعد المدرسة الرابعة من المعاجم العربية مدرسة حديثة نسبياً، حيث تضم معاجم مثل "أساس البلاغة" للزمخشري، بالإضافة إلى بعض المعاجم الحديثة مثل "المعجم الكبير" و"المعجم الوسيط" الصادرين عن المجمع اللغوي، وبعض معاجم اليسوعيين مثل "محيط المحيط" لبطرس البستاني.

وتتميز هذه المدرسة باتباعها لترتيب حروف الألف باء، مع مراعاة الحرف الأول ثم الثاني ثم الثالث من الأصول. وهذا الترتيب أكثر تنظيماً وترتيباً مقارنة بالمدارس السابقة.

ومن حيث الأهداف والمناهج، يختلف "أساس البلاغة" للزمخشري عن بقية المعاجم بشكل ملحوظ، حيث يعد جهداً فردياً مميزاً. بينما تميزت معاجم المجمع اللغوي مثل "المعجم الكبير" و"المعجم الوسيط" بالدقة والموضوعية، والحرص على العربية الفصحى، وترتيب المادة بتقديم الفعل وتأخير الاسم، وحذف الأعلام. كما تميزت هذه المعاجم بالتفسير بعبارات جديدة قريبة من مستوى المحدثين.

أما معاجم اليسوعيين مثل "محيط المحيط" لبطرس البستاني، فتبدو موجهة للطلبة والتلاميذ، وربما لطلبة مدارس اليسوعيين بشكل خاص. وعلى الرغم من تشابهها مع معاجم المجمع اللغوي في بعض الجوانب مثل ترتيب المادة وتقديم الفعل وتأخير الاسم وحذف الأعلام، إلا أنها واجهت بعض الانتقادات فيما يتعلق بالمادة والتفسير. حيث لوحظ وجود أخطاء في التفسير وعدم الدقة، وسوء العبارة، والخطأ في ضبط الألفاظ، والإتيان بمعانٍ لم ينص عليها القدماء.

وقد استمدت معاجم اليسوعيين الكثير من هذه المعاني من مصادر مثل "جوليوس" و"فريتاج"، ومن الآثار المسيحية. كما تأثرت بشكل كبير بمعجم "القاموس المحيط" لفيروزآبادي، مما أدى إلى حدوث بعض الأخطاء في التفسير والضبط.

وعلى الرغم من هذه الأخطاء، إلا أن معاجم اليسوعيين لا تزال ذات قيمة، حيث قدمت معلومات مفيدة للطلبة والتلاميذ. كما أن تأثير بطرس البستاني على أفراد مدرسة اليسوعيين كان واضحاً، مما أدى إلى وجود بعض التفاوت في مستوى هذه المعاجم[7].

---

[6] -ينظر: حسين نصار."المعجم العربي نشأته و تطوره"، ج2، ص 483 و ما بعدها.

[7] - ينظر: المرجع نفسه، ج2، ص 731-743.

لقد ساهمت هذه المدرسة في تطوير المعاجم العربية، حيث قدمت معاجم حديثة وسهلة الاستخدام، مع مراعاة الدقة والموضوعية في ترتيب المادة وتفسيرها. وعلى الرغم من بعض الأخطاء، إلا أن هذه المعاجم لا تزال مراجعاً مهمة للباحثين والدارسين، وتعد إضافة قيمة لتاريخ اللغة العربية.

من الملاحظات الهامة التي يمكن استخلاصها من السرد التاريخي للمعجم العربي، نجد:[8]

1-أنّ المعاجم الدلالية الخاصة ركزت على مستويات محددة من اللغة العربية. حيث تناولت هذه المعاجم جوانب مختلفة من اللغة، مثل معاجم ألفاظ القرآن الكريم، ومعاجم ألفاظ الحديث النبوي الشريف، ومعاجم المصطلحات العلمية العربية، بالإضافة إلى معاجم الألفاظ الدخيلة في اللغة العربية من الناحيتين الاشتقاقية والدلالية.

ومن أهم المعاجم الدلالية التي تم تأليفها لألفاظ القرآن الكريم، نجد كتاب "المفردات في غريب القرآن" للراغب الأصفهاني، والذي توفي عام 502 هجرية. حيث قدم هذا الكتاب تفسيراً دقيقاً للألفاظ القرآنية من الجوانب الدلالية والصرفية، مستشهداً بشواهد من الشعر والأحاديث والأمثال. وعلى الرغم من أن كتاب "مجاز القرآن" لأبي عبيدة معمر بن المثنى لم يرتب موضوعاته أو ألفاظه ترتيباً معجمياً، بل جاء وفق ترتيب سور القرآن الكريم، إلاّ أنّه يعد من أهم المعاجم العربية الخاصة بالألفاظ الدخيلة.

كما نجد أنّ كتاب "المعرّب من الكلام الأعجمي" للجواليقي، والذي توفي عام 540 هجرية، يعد من أهم المعاجم العربية الخاصة بالألفاظ الدخيلة. حيث قام الجواليقي بجمع وتصنيف الألفاظ الأعجمية التي دخلت اللغة العربية، وتتبع أصولها ومعانيها، مما ساهم في الحفاظ على اللغة العربية وتوثيق الألفاظ الدخيلة.

لقد ساهمت هذه المعاجم الدلالية الخاصة في إثراء اللغة العربية وتسهيل فهم نصوصها المقدسة، مثل القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف. كما أنها ساعدت في توضيح المصطلحات العلمية العربية، وتتبع الألفاظ الدخيلة وتوثيقها. مما جعل هذه المعاجم مراجعاً مهمة للباحثين والدارسين في مختلف المجالات اللغوية والدينية والعلمية.

وعلى الرغم من تركيز هذه المعاجم على مستويات محددة من اللغة، إلا أنها ساهمت بشكل كبير في تطوير المعجم العربي وتوسيع آفاقه، حيث قدمت معلومات قيمة وموثوقة في مجالاتها المختلفة.

2- توجد العديد من المعاجم الخاصة بالمصطلحات العلمية، والتي ساهمت في توثيق وتفسير المصطلحات المستخدمة في مختلف المجالات العلمية. ومن أبرز هذه المعاجم، نجد كتاب "التعريفات" لعلي بن محمد الجرجاني، والذي توفي عام 816 هجرية. حيث قدم الجرجاني في هذا الكتاب تعريفات دقيقة وواضحة لمصطلحات علمية مختلفة، مما ساعد في فهم وتوضيح المفاهيم العلمية بشكل أفضل.

[8] -ينظر: محمود فهمي حجازي."أسس علم اللغة"، ص 114-115.

كما نجد كتاب "كشاف اصطلاحات الفنون" للتهانوي، والذي توفي عام 1158 هجرية. حيث قام التهانوي بجمع وتصنيف المصطلحات العلمية المستخدمة في مختلف الفنون والعلوم، مما جعل هذا الكتاب مرجعاً قيماً للباحثين والدارسين في المجالات العلمية.

ومن الجدير بالذكر أن التهانوي قد نهج نهج بعض المعاجم العربية الشهيرة، مثل "أساس البلاغة" للزمخشري، في ترتيب وتصنيف المصطلحات العلمية. حيث اتبع التهانوي منهجية دقيقة في تنظيم المصطلحات وتصنيفها، مما ساهم في سهولة الوصول إليها وفهمها.

لقد ساهمت هذه المعاجم الخاصة بالمصطلحات العلمية في إثراء اللغة العربية وتطويرها، حيث قدمت تعريفات دقيقة وواضحة للمصطلحات العلمية، مما ساعد في توحيد المفاهيم وتسهيل فهمها. كما أنّها ساهمت في الحفاظ على المصطلحات العلمية وتوثيقها، مما جعلها مراجعاً أساسية للباحثين والمهتمين بالعلوم المختلفة.

وعلى الرغم من أنّ هذه المعاجم ركزت على المصطلحات العلمية، إلاّ أنّها ساهمت بشكل كبير في تطوير المعجم العربي بشكل عام، حيث أضافت مصطلحات جديدة ومفاهيم علمية إلى اللغة العربية، مما ساعد في مواكبة التطور العلمي والتقني.

3- توجد العديد من المعاجم الموضوعية التي ركزت على تصنيف الكلمات والمصطلحات حسب المواضيع المختلفة. ومن أبرز هذه المعاجم، نجد كتاب "الغريب المصنف" لأبي عبيد القاسم بن سلام، والذي توفي عام 224 هجرية. حيث قام ابن سلام بتصنيف الكلمات الغريبة والمصطلحات حسب المواضيع، مما ساعد في فهمها واستخدامها بشكل أفضل.

ومن المعاجم الموضوعية التعليمية المهمة، نجد كتاب "كتاب الألفاظ" لابن السكيت، والذي توفي عام 244 هجرية. حيث اهتم ابن السكيت بالألفاظ التي ارتضتها الدوائر الثقافية، والتي كانت تبتعد عن التقعر والعامية. كما نجد كتاب "جواهر الألفاظ" لقدامة بن جعفر، والذي توفي عام 337 هجرية، حيث قدم تصنيفاً دقيقاً للألفاظ حسب المواضيع المختلفة. بالإضافة إلى كتاب "متخير الألفاظ" لأحمد بن فارس، والذي توفي عام 395 هجرية، حيث ركز على اختيار الألفاظ المناسبة والجميلة.

ومن المعاجم الموضوعية التعليمية أيضاً، نجد كتاب "الألفاظ الكتابية" لعبد الرحمن الهمذاني، والذي توفي عام 327 هجرية، حيث ركز على الألفاظ المستخدمة في الكتابة والتأليف. كما نجد كتاب "فقه اللغة" للثعالبي، والذي توفي عام 429 هجرية، حيث قدم معلومات قيمة حول اللغة العربية وخصائصها.

ويُعدّ المعجم "المخصص" لابن سيده، والذي توفي عام 398 هجرية، من أكبر المعاجم الموضوعية في اللغة العربية. حيث تناول ابن سيده في هذا المعجم قضايا اللغة والمفردات العربية، وقام بتصنيفها تصنيفاً موضوعياً شاملاً. فعلى سبيل المثال، عندما ذكر الألفاظ الخاصة بخلق الإنسان، أورد ما يتعلق بجسم الإنسان وحياته الاجتماعية، ثم انتقل إلى الأقسام الخاصة بالأبنية والسلاح والخيل والإبل والغنم والأنواء والماء والمشاورة والاستبداد والغناء والرقص واللعب. كما أفرد ابن سيده قسماً كبيراً في نهاية المعجم لمجموعة من القضايا الصرفية التي شغلت جزءاً كبيراً من كتاب "المخصص."

لقد ساهمت هذه المعاجم الموضوعية في تطوير اللغة العربية وتسهيل فهمها واستخدامها. حيث قدمت تصنيفاً دقيقاً للألفاظ حسب المواضيع المختلفة، مما ساعد في تنظيم اللغة وتيسير الوصول إلى المعلومات اللغوية. كما أنها ساهمت في الحفاظ على اللغة العربية وتوثيق مصطلحاتها، مما جعلها مراجعاً مهمة للباحثين والدارسين في مختلف المجالات.

4- يعلم الباحثون جيداً أن المعاجم القديمة لا تقتصر وظيفتها على مجرد بيان معاني الكلمات، بل تتعدى ذلك لتشمل العديد من الجوانب اللغوية والثقافية الهامة[9]:

حيث تقوم هذه المعاجم القديمة بدور موسوعي شامل، فهي لا تقتصر على شرح المعاني فحسب، بل تتطرق إلى جوانب أخرى غنية بالمعلومات القيمة.

ومن أبرز هذه الجوانب، نجد تتبع اللهجات العربية القديمة، حيث تقوم المعاجم القديمة بتوثيق اللهجات المختلفة واستخداماتها الاشتقاقية، مما يساعد في فهم التنوع اللغوي في اللغة العربية. فعلى سبيل المثال، نجد معاجم مثل "لسان العرب" و"تاج العروس" و"الصحاح" و"التهذيب" و"مقاييس اللغة" و"أساس البلاغة"، والتي تعرضت للهجات العربية القديمة وربطتها بالاشتقاقات والاستخدامات المختلفة.

كما تهتم المعاجم القديمة بالجوانب الإعرابية والصرفية لبعض التراكيب اللغوية، حيث تقوم بمعالجتها وتوضيحها كما وردت عند النحاة. فهي تقدم آراءً وتحليلاتٍ مفصلةً حول هذه الجوانب، مما يساعد الباحثين والدارسين في فهم قواعد اللغة العربية بشكل أعمق.

ومن الجوانب المهمة الأخرى، نجد اهتمام المعاجم القديمة بالقراءات القرآنية وربطها باللهجات العربية. حيث تقوم هذه المعاجم بتوضيح القراءات المختلفة للقرآن الكريم، وربطها باللهجات التي تنتمي إليها، مما يساهم في فهم النص القرآني بشكل أفضل.

لقد أصبحت المعاجم القديمة بمثابة موسوعات علمية شاملة، حيث تحتوي على معلومات غنية ومتنوعة في مختلف المجالات اللغوية والثقافية. فهي لا تقتصر على شرح المعاني فحسب، بل تتطرق إلى اللهجات والقراءات القرآنية والجوانب الإعرابية والصرفية، مما يجعلها مراجعاً لا غنى عنها للباحثين والمهتمين باللغة العربية.

وعلى الرغم من أنّ هذه المعاجم قديمة، إلاّ أنّها لا تزال ذات قيمة كبيرة، حيث تقدم معلومات قيمة وفريدة من نوعها، مما يجعلها مصدراً مهماً للباحثين في مختلف التخصصات اللغوية والثقافية.

لهذه الأسباب ولغيرها بدت تلك المعاجم وكأنّها موسوعات علمية أو دوائر معرفية لها طابعها، ويجد الباحث فيها ملاذا كثيرا من المسائل هو بحاجة إلى حلّها.

شهد العصر الحديث استمرارية في العلاقة بين المعاجم القديمة والحديثة، حيث حافظت المعاجم الحديثة على العديد من السمات والطرق التي اتبعها القدامى في شرح الكلمات وتفسير معانيها. فعلى الرغم

[9] -ينظر: أحمد معتوق."المعاجم اللغوية العربية"، مجلة العربي، ع 509، أبريل 2001م، ص 185.

من التطورات والتغيرات التي طرأت على اللغة العربية، إلا أن اللغة بقيت كما هي، والرواية بقيت كما هي، مما جعل المعاجم الحديثة تستمد الكثير من منهجية المعاجم القديمة.

ومن أبرز الأمثلة على ذلك، نجد "المعجم الوسيط" الذي تم وضعه تحت إشراف مجمع اللغة العربية. حيث حافظ هذا المعجم على طريقة القدامى في الشرح من حيث اللفظ والمعنى، مع إدخال بعض التعديلات والتطويرات. فعلى سبيل المثال، عمم "المعجم الوسيط" القياس وحرر السماع من قيود الزمان والمكان، وهي فكرة قديمة دعا إليها ابن جني في كتابه "الخصائص". كما ساوى المعجم بين القديم والمولد، واحتوى على العديد من الألفاظ الجديدة التي انحدرت من أصول فصيحة.

ومن الجدير بالذكر أنّ "المعجم الوسيط" حذف العديد من ألفاظ الغريب التي كانت موجودة في المعاجم القديمة، حيث ركز على الألفاظ الشائعة والاستخدامات الحديثة. كما أنه وسع نطاقه ليشمل الألفاظ والمصطلحات الحديثة المتعلقة بالمهن والحرف الجديدة.

لقد حافظ "المعجم الوسيط" على الصلة بين المعجم القديم والحديث، حيث جمع بين الأصالة والمعاصرة. فمن ناحية، حافظ على طريقة القدامى في الشرح والمعنى، ومن ناحية أخرى، طور وأضاف العديد من الميزات الحديثة التي تلائم العصر. مما جعله مرجعاً مهماً للباحثين والدارسين، حيث جمع بين الأصالة والحداثة في شرح اللغة العربية.

وعلى الرغم من التطورات التي طرأت على المعاجم الحديثة، إلاّ أنّها لا تزال تستمد الكثير من المعاجم القديمة، حيث تعتبر هذه المعاجم مصدراً أساسياً للغة العربية وتطورها عبر العصور[10].

يتميز المعجم العربي القديم بزمنه الطويل وسعته الواسعة، حيث يمتد زمنه لأكثر من اثني عشر قرناً، ويحتوي على مجلدات ضخمة من المعارف اللغوية. وقد شهدت المعاجم العربية القديمة تطوراً ملحوظاً في التنظيم والترتيب، حيث سار العديد من المعاجم على ترتيب حروف الألف باء، قبل ظهور المعاجم الكبيرة. ومن أبرز الأمثلة على ذلك، نجد معجم "أساس البلاغة" للزمخشري، والذي يقع بين المعاجم الخاصة والعامة، حيث سار على ترتيب حروف الألف باء، وقام بتحسينه وتطويره.

ومن الجدير بالذكر أنّ المنهج النظري في المعاجم العربية القديمة كان أكثر تقدماً من المنهج التطبيقي. حيث وضع الخليل بن أحمد الفراهيدي منهجاً نظرياً جيداً ومقسماً بشكل جيد، ولكنه لم يتمكن هو ولا تلميذه الليث بن المظفر من تطبيقه بشكل كامل في كتاب "العين". فقد عدل الخليل عن العديد من خطوات منهجه، وسار على نهج مختلف بعض الشيء.

كما وضع "ابن سيده" في مقدمة كتابه "المحكم" منهجاً يعتبر ثورة في عالم التأليف اللغوي العربي، ولكنه لم يتمكن من تطبيقه بشكل كامل في المعجم. حيث واجه صعوبات في تنفيذ منهجه النظري بشكل عملي.

[10] -ينظر: أحمد معتوق."المعاجم اللغوية العربية"، ص 186-187.

لقد كان المنهج النظري في المعاجم العربية القديمة متقدماً ومتطوراً، ولكن تطبيقه العملي واجه بعض التحديات. حيث سعى اللغويون العرب إلى تطوير منهجياتهم وتنظيم معاجمهم، ولكنهم واجهوا بعض الصعوبات في التنفيذ العملي[11].

يمكن القول أنّ المعجم العربي مر بمراحل تطور مشابهة لتطور البوصلة ومقياس الزوايا، حيث كان المسلمون هم من ابتكروا هذه الأدوات، ولكنهم لم يستخدموها في اكتشاف أمريكا. وبالمثل، وضع اللغويون العرب العديد من المعاجم المهمة مثل "لسان العرب" و"الصحاح" و"التهذيب" و"المقاييس" و"أساس البلاغة" و"القاموس المحيط" و"تاج العروس"، ولكن الأجيال اللاحقة لم تستطع الحفاظ على هذا المجد، وأصبحت معاجمهم أقل مكانة بين الأمم من حيث المظهر والمحتوى.

فقد تقدم آخرون وتطوروا في مجال المعاجم، حيث اهتمت المعاجم العامة بتغطية مفردات اللغة العامة المشتركة، بينما اقتصرت المعاجم الخاصة على أنواع محددة من اللغة، مثل معاجم المترادفات أو المتضادات أو الكلمات الأجنبية أو المعربة أو معاجم التصريف الاشتقاقي أو معاجم التعبيرات السياقية أو معاجم مصطلحات العلوم والفنون أو معاجم اللهجات.

وشهدت المعاجم تطوراً ملحوظاً في طبعاتها، حيث أصبحت أكثر تنقيحاً وإتقاناً في إخراجها، وتواكبت مع التطور التكنولوجي والعصر الحديث. كما أصبحت المعاجم أكثر انفتاحاً على المعاجم الأحادية والثنائية والمتعددة، مما ساهم في تطورها وتوسعها.

لقد مرّ المعجم العربي بمراحل تطور مختلفة، حيث شهد تطوراً في المنهجية والمحتوى، ولكن الأجيال اللاحقة لم تستطع الحفاظ على مكانته المرموقة. ومع ذلك، استمرت المعاجم في التطور والتكيف مع العصر الحديث، ممّا جعلها أكثر فائدة وشمولاً للباحثين والدارسين.

[11] - ينظر: حسين نصار."المعجم العربي نشأته و تطوره"، ج2، ص 785.